(5) الأداء المعرفى الحضارى

من أعظم نِعم الله علىّ: أن همتى عالية على طول المدى، حتى ليستبد بى الطموح، ويطرقنى بوتيرة قوية، ولا يدوم معى حزن. وزادتنى مطالعتى لكتاب أخى عائض القرنى المعنون «لا تحزن» ثقة بنفسى، وتوكلا على الله تعالى، حتى إن اليأس ليعترينى، ولكن بلا مقام، بل يجلو بسرعة، تثور عليه طبيعتى فى التحدى والتجريب والابتكار والتجديد واختراع الطريف وكراهة التقليد، حتى أصبحت هذه الحسنات عيوبًا يعيبنى بها أصحابى ويعيّرونى بها، فإنهم يرون منى بُعد الأمل إذ اليد قصيرة، وأرغمهم على الجلوس بين يدىّ يستمعون لخواطرى التخطيطية وأحلامى الدعوية وهندستى المؤسسية، فتنهال علىّ تُهم التحليق فى الخيال، والانغماس فى اللاواقعية، والتخدّر بحديث الغد مع نسيان واجب اليوم، وأنا أطلب لهم الثوب الفضفاض، فيأبون إلا القصير الضيّق، وينظرون من زوايا محددة، تحت مظلة قطْع ناقص، بينما قطعى مكافىء، كثير الزوايا عريضها، بل أنا أجلس فى مركز كُرة على كرسى دوّار ميّال يطوف بى على زوايا بلا حدود.

ولستُ أدرى لم لا يعتمدون صناعة الخيال هذه وهى مركز الإبداع الذى تنطلق منه الحياة الحضارية والتطورات المدنية، ولم لا يتخيرون من فلتات التأمل الثائر الفائر القافز أشياء توافق المقدار والطاقة والسّعر والقانون والمرحلة وأفهام المنفّذين، إذ بين الصناعتين علاقة، لكنهم يعطلونها أو يزهدون بها.

بيد أنى لم أستسلم، ولم أبدّل مذهبى فى التفكير،وحقى فى الطموح المسرف رغم اجتماع النكبات علىّ والمصائب، لأنى مازلت على يقين أنه هو الدرب الصحيح، وقد بلغ من ثقتى بنفسى وبالعقل الذى وهبنى ربى إياه أنى أكره أن يقف العلم قرنًا عند نقطة النسبية التى دلنا عليها آينشتاين لا يزيد عليها ولا يرى ما بعدها، أوأن يقف عشر سنوات عند نقطة التأثير غير المحلى التى وصلت إليها فيزياء الكم واكتشاف رقصات الألكترون وضرباته الخاطفة وإغرائه للفوتون وإدلاله، وكأنى أرى فى العلماء بعض قصور عن الاجتهاد الذى تعدى بهم

نقطة المراوحة هذه، فَهَمَمْتُ أن أستدعى فيزياويًّا يعلمنى الفيزياء من أولها وألفها وبائها، حتى يصل بى إلى النظرية النسبية وآخر خبر الفيزياء الكمية، ومعه رياضى يعلمى الرياضيات ويبدأ بقصة الخوارزمى مع الصفر، ثم ما تعلمته يوم دخلت المدرسة الابتدائية من أن الواحد زائد الواحد يساوى اثنين، ويتدرج بى إلى المعادلات الصعبة والتوافيق والتباديل والتكامل والتفاضل والمصفوفات والجبر، ويطفقان يُدربانى سنوات، وذهنى ينقدح مرة بعد مرة، حتى تخرج الشرارة الآذنة بالمسير بعد الوقوف، فأصرخ صرخة أن قد وجدتُها، وجدتُ ما بعد النسبية وبعد تجارب إسبكت وجدل هاينزبرك وبور حول التأثير اللامحلى الذى يفوق سرعة الضوء. وكنت فى شبابى قد قرأت خمسين كتابًا مترجمًا إلى العربية فى التعريف العام بالذرة وعلومها، ثم قطع الطريق علىّ إرهاق المسئولية والتفقه اللازم لها.

هو غرور فى أعراف البعض، واعتداد زائد، لكنه حق من حقوقى الإنسانية، وواجب من واجباتى الإسلامية، فى عرفى وفهمى، وأنا أعظك أخى أن تكون رجعيًّا هيّابًا خوّافًا شاكًّا فى قدراتك، وأطلب منك أن تكون مثلى: جسورًا على المجهول، مستعملًا للعقل، محلقًا فى آفاق المعارف، صيّادًا للخواطر، سئولًا، مُحاورًا، مفترضًا، مفجرًا لقنابل تنسف المألوف، ثائرًا على التخلف، متمردًا على روح التقليد، وأنا أعظك بمواعظ داعية وأبين لك أصول الاجتهاد وحركة الحياة والمنهجيات، وسميت لك أول خطوة بصراحة أنها المنطلق، ولم أعدك بأوهام الدراويش، ولم أكتب لك فى النكوص والاستئسار والوسوسة وخبر الجن، وإذا شخت أنا وعجزت وفاتنى القطار فالأمل أنك تواصل.

ولو كان وضع منهجية التربية الريادية بيدى وأنا سيد القرار: لجمعت أذكياء الدعوة، من فيزياوى ورياضى ومهندس وطبيب وكيمياوى، ولجعلتهم فى مجلس أعلى رديفًا لمجلس الشورى ومجمع الفقهاء، وأنطت بهم مهمة التفكير الدائم والافتراض المتجدد والقياس المتوالى، وضرب الأخماس بالأسداس، ليقدموا فى كل موسم حصيلة ذهنية عامة لا تنظر إلى إمكان، مع نظرة نقدية شاملة ليس فيها إدهان، ثم يقترحون ويتمنون، حتى ولو كان بعضهم كسولاً فى الأداء اليومى، أو مازال أسيرًا لبعض تقصير ونقص، ليأتى مجلس الشورى من بعد يميّز، ويُبرم وينقض، ويختار عن بيّنة، ويسعى فى أفق عريض، فإن اللمعات تقود الخطوات. بل عندى: أن بعض مؤيدى الدعوة، إذا شايعها بصدق وإخلاص، ثم بقى بعض الفسوق

obeikandi.com

والعصيان عالقًا به، لكن القرائن تشهد بحبه لله ورسوله وتعظيمه القرآن: فإن الفتوى فى الاستعانة بنتائج تفكيره وسياحات فكره وارادة إذا تميّز بذكاء، من غير أن أمنحه حق أمر وإملاء.

ومعترض يعترض: وهل مشكلة الدعوة فى عدم إدراك نسبية آينشتاين فضلاً عن استئناف خطوة بعدها؟

فأقول: نعم، هى بالتأكيد وجه من وجوه الإشكال الدعوى، فإن النسبية لا أثر لذاتها، ولكن ما يواكبها ويلحق بها وينتج منها ويتكامل معها من حقائق العلم التى تؤدى إلى السيطرة على توجهات السياسة والاقتصاد والأخلاق والثقافة والإعلام وعموم نواحى الحياة، **وانظر إلى بقية قصة آينشتاين:** كيف أهدى أميركا القنبلة الذرية، فحسمت أمر الحرب، ثم تقدمت خطوة بعد خطوة فى الهيمنة والتأثير على سياسات معظم الدول، واحتكرت للدولار الحقوق، وحصل تركّز الأمور فى يدها، بالسلم والعلم والتأثير النفسى وآثار التربية تارة، وبحروب تارة أخرى، وآخرها حرب الخليج وحرب أفغانستان الثانية والحملة ضد التنظيمات التى تتحرش بها، حتى استوت أميركا على قمة التأثير، وفرضت نظامها العالمى، وأصبحت تملى إرادتها على شعوب الأرض المستضعفة، بل على الجميع حتى ولو كانوا أنزل منها درجة واحدة فقط، ثم اربط هذه النتيجة والنهاية بتلك المقدمة والبداية: تنجلى لك القضية، وتفهم أن مخرج الدعوة إنما هو مخرج حضارى معرفى، وأن دربها درب مدنى، ويتضح لك ارتباط المهمة القيادية والمنهجية التربوية باللمعات العلمية، وإذا توغلت أكثر ورأيت التأثير النفسى والسياسى والاقتصادى والعلمى التطبيقى لخُطة حرب النجوم على أميركا والاتحاد السوفيتى البائد والعالم لاقتربت أكثر فى إدراك مفتاح صناعة الحياة.

أسلافنا المتحضرون أصحاب المنهجية والعقل المنفتح

ولست حين تفعل ذلك بالمبتدع، لكنك تفخر بحضارة الإسلام من دون أن تدرى ما حرّكها، وتضرب سيطرة المسلمين الأوائل على حركة الحياة من دون أن تفطن إلى إنجازاتهم ومنهجيتهم الصحيحة التامة التى أذنت لهم أن يبسطوا سلطانهم.

* فقبل أكثر من ألف سنة من تحريق الفاتيكان لمن يقول بكروية الأرض ودورانها كان

obeikandl.com

القرآن ينطق ويعلم المسلمين بعض النظر الحضارى فيقول: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرحمن].

ويظن البعض أن اللفظ ينصرف إلى الحساب والتقدير فقط.

لكن قال البخارى: «قال مجاهد: كحُسبان الرحى».

قال ابن حجر: «وصله الفريابى فى تفسيره من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد. ومراده أنهما يجريان على حسب الحركة الرحوية الدورية وعلى وضعها»[1].

ومجاهد من أكابر التابعين، تلميذ ابن عباس.

فالقرآن إذن يقولها، لا كوبر نيكوس، وصدر المسلمين الأول يفهمها.

* واستوقفنى حرص ابن حجر فى تحقيقاته على الرجوع إلى النسخ العتيقة من مدونات الكتب التى هى مظنة الصحة والإتقان[2].

كقوله فى حديث اختلفت النسخ فى لفظ منه: «وقد وجدته فى نسخة قديمة جدًّا من ابن ماجه قرئت فى سنة بضع وسبعين وثلاثمائة، وهى فى غاية الإتقان».

فالنمط المعاصر من التحقيق والحرص على المخطوطات كان هو نمط السلف أمثال ابن حجر رحمه الله، ونحن نظنه من تلقين المستشرقين لنا.

وفى ثنايا نقول ابن حجر فى الفتح عمن قبله يستوقفنا «ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق صالح بن أحمد بن حنبل قال: قرأت فى دواوين هشام بن عبد الملك...» ثم ذكر رسالة من هشام إلى عامله بخراسان[3]، ومعنى ذلك أن تأسيس مراكز الوثائق إنما هو اختراع إسلامى قديم يكشف عن النزعة الحضارية، بل هاهنا مبالغة فى المعنى المنهجى، لأن الدولة العباسية التى عاش فى ظلها صالح بن أحمد احتفظت بوثائق الدولة الأموية، ولم يمنعها عامل العداوة من تيسير منهجية البحث للباحثين والاحتفاظ بوثائق دولة هم الذين أجهزوا عليها، فى حين كانت دول الكفر تميل إلى الحرق ومحو الآثار.

---

(1) فتح البارى 7/ 106.
(2) فتح البارى 8/ 34.
(3) فتح البارى 17/ 114.

obeikandl.com

واسمع استدراك ابن حجر على قول للحافظ مغلطاى ينسب فيه حديثا إلى تفسير ابن عيينة، فكأن ابن حجر حاك فى نفسه شىء فراجع نسخة موثقة لهذا التفسير بخط الحافظ الضياء المقدسى.

قال ابن حجر:

«وعزاه مغلطاى فيما قرأت بخطه لتفسير ابن عيينة، رواية سعيد بن عبد الرحمن عنه. وقد راجعت منه نسخة بخط الحافظ الضياء فلم أجده فيه» (1).

وكذلك عقب ابن حجر على قول شيخه الهيثمى فى زوائد المسانيد حول يوم عاشوراء عند اليهود وأنه يدور فى السنة. قال الهيثمى: «لا أدرى ما معنى هذا».

قال ابن حجر: «ظفرتُ بمعناه فى كتاب الآثار القديمة لأبى الريحان البيرونى، فذكر ما حاصله أن جهلة اليهود يعتمدون فى صيامهم وأعيادهم حساب النجوم، فالسنة عندهم شمسية لا هلالية» (2).

فهو رجوع إلى الكتب المتخصصة لكشف الإشكال.

ومثل هذا كثير مما هو فى الحقيقة أصل منهجية البحث الدقيق التى يظن المستعجلون أنها من معطيات هذا العصر.

* وذكر المقريزى (3) ما يفيد وجود نسخة من «الياسا» بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد، وهى شريعة الحلال والحرام التى وضعها جنكيزخان وضاهى بها الأديان واخترع له دينًا مُلفَّقًا.

أقول: ونسوق هذا لمسلمين ضيقى الأفق يستكبرون أن تحوى مكتباتنا كتب الكفر والضلال من أجل التعرّف عليه ورده، بينما الوعى المنهجى عند أسلافنا كان تاما.

والمفروض أن نتجاوز مقادر هذا التنبيه، ولكن نريد أن نبالغ فى تفهيم المبتدئين والمتخلفين.

---

(1) فتح البارى 5/ 195.
(2) فتح البارى 5/ 151.
(3) خطط المقريزى 3/ 358 نقلا عن تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوى 1/ 133.

obeikandl.com

وقارن ذلك بشريط سمعتهه يجادل فيه بعض الشباب المتزمت فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى رحمه الله ويطلبون منه الإفتاء بوجوب حرق كتب ابن حجر العسقلانى والنووى لأنهم أشاعرة، وبذل الشيخ رحمه الله جهدًا فى محاولة تفهيمهم خطأ ما يريدون، لكن الفكرة كانت مستولية عليهم ورفضوا كلامه.

* وحين ذكرت فى صناعة الحياة ما فى التنقيب عن الآثار من تكميل للمواعظ استغرب البعض واعتبر ذلك تشبهًا بالغربيين، وما دروا أن ذلك كان من منهجية السلف، وأن التابعى الفقيه مجاهد بن جبر المكى مثلاً كان كأنه من أساتذة أكسفورد الذين ينبشون الآثار والأخبار ويتحرون إماطة سر الغرائب فى مكامنها، فإنه كان «لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب لينظر إليها؛ ذهب إلى حضرموت ليرى بئر برهوت، وذهب إلى بابل وعليه وال، **فقال له مجاهد**: تعرض علىّ هاروت وماروت. فدعا رجلاً من السحرة **فقال**: اذهب به. **فقال اليهودى**: بشرط أن لا تدعو الله عندهما. **قال**: فذهب به إلى قلعة فقطع منها حجرًا ثم **قال**: خذ برجلى، فهوى به حتى انتهى إلى جوبة»[1]، أى أن الساحر تدلى فى البئر أو الهوة ومجاهد متعلق برجله يهبطان معًا، كأنك ترى مشهدًا في فيلم مغامرات مثير من أفلام إنديانا جونز، وكل ذلك من أجل التدقيق والتأكد، تحدوه المنهجية.

* بل ذهب الفقه أبعد فى النظر الحضارى، فانتبه إلى حاجة تربية الأولاد إلى حدائق الحيوان والفرح بالحيوان الغريب واللعب معه، فقد **قال الشافعى**: يجوز بيع القرد، لأنه يُعلّم وينتفع به لحفظ المتاع.

وحكى الكَشْفَلّى عن ابن شريح: يجوز بيعه لأنه ينتفع به.

فقيل له: ما وجه الانتفاع به؟

قال: تفرح به الصبيان[2].

وتداول الفقه أيضًا عدم تحميل الجمل ما لا يطيق، وأول من بدأ بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ضرب جمّالاً لا يرحم جمله[3].

(1) تذكرة الحفاظ للذهبى 1/ 93.
(2) تفسير القرطبى 7/ 80.
(3) تفسير القرطبى 10/ 49.

أحرارٌ أدباء يعشقون الجَمال ... يسيرون فى الأرض

فهذا النمط الحضارى عند السلف يأذن لنا تضمين منهجية التربية الدعوية أنواعًا من الأداء المعرفى تعتمد إذكاء العاطفة والروح، وتعمير الوجدان والمشاعر، وتحريك القلوب وتنقية الأحاسيس، وتدع النفوس تحلّق، تطلب السمو وتترفع عن دون، وكل ذلك من ضرورات صناعة العنصر الريادى الذى ينفذ المشروع الإسلامى الحضارى.

*** الأداء الأول: التأمل فى الخلق، وفحص نظام المخلوقات وبدائع الكون.**

وهو نمط إيمانى أمر به القرآن، ولكنّا نغفل عنه.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت].

ومع الأسف أننا لم نسر، وإنما سار داورن، فما عدا قدْره، فقد أدرك شيئًا من نظام الخلق، لكنه طاش ولم ير خصوصية آدم والبشر، فزعم ما زعم من تخليط، وأما ما عدا ذلك فى نظريته من النشوء والارتقاء والتطور فهو صحيح، وهو نظر علمى موزون يجيب على سؤال ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ القرآنى، وليس هناك فى جملة جوابه ما ينافى الإيمان، سوى أنه لم يلتفت إلى أن آدم هو خارج السياق الخلقى المتطور، أهبطه إلى الأرض كاملاً، ولم يخضع لظاهرة التطور.

وإطالة النظر إلى حقائق الجينات والكروموسومات تدع المؤمن فى عجب، يأسره النظام والتوزع والتدرج والتصاعد، وإذا اقترن ذلك بنظر إلى الذرة وتركيبها ومداراتها وتنوع العناصر بزيادة بروتون بعد آخر لتجلى المعنى النظامى بصورة أبهى.

ثم إذا نظرنا إلى تدرج المخلوقات من ذات خلية واحدة، إلى مخلوقات صغيرة لا ترى، إلى أكبر وأكبر، فى توازن خلقى وبيئى لازداد العجب، ومع مقارنتها بنظام الشموس والكواكب السيارة، ومجاميع النجوم العنقودية وتوزعها فى أرجاء الكون بانتظام، وأنواع المجرات، مع الثقوب السوداء، مع تمدد الكون واستمرار الخلق: يزداد إيماننا بخالق كل ذلك بهذا التسلسل البديع.

obeikandl.com

وزرت حدائق «وزلى» فى ضواحى لندن مرتين، فرأيت عشرات ألوف أنواع النبات، من فواكه وورود وحشائش، وجملة ما فيها أكثر من مائتين وعشرين ألف شكل من النبات، تنطق بتسبيح الله تعالى خالق الأنواع ومصور الجمال، ويمكن أن تركب الباص الأخضر الريفى إليها من عند ركن المتكلمين فى الهايد بارك.

وما زال التليفزيون يعرض لنا في برنامج عالم البحار عجائب الأسماك ومخلوقات الماء ولا تنفد العجائب.

ومفردات الإعجاز القرآنى وإعجاز بعض أقوال النبى ﷺ كثيرة، وفيها ما يحير الألباب، وكلام زغلول النجار ومحسن صالح وعبد المجيد الزندانى وأضرابهم فيه كلام رصين مؤيد بالبرهان، ويقود علاء الدين المدرس اليوم ببغداد جناحًا إعجازيًّا آخر.

فهذا كله من منهج تربيتنا الدعوية، لكن ليس الإنصات لعناوين هذه العلوم، وإنما المطالعة المستوعبة لكتب كثيرة قدح زناد البداية فيها الدكتور أحمد زكى فى كتاب: «مع الله فى السماء»، مع مشاهدة عشرات أفلام فيديو خاصة صدرت عن مراكز الإعجاز، وفيديو محاضرات الإعجاز، وفيديو وسائل إيضاح علم الذرة والفيزياء مما أنتج فى الغرب، مع مقتبسات مما تعرضه قنوات ديسكفرى والجغرافية، وأنا أفهم أن اللجنة التربوية فى كل بلد إذا كانت حريصة على أداء مهمتها بنجاح فإن عليها أن تجمع كل الكتب المؤلفة فى ذلك، وطائفة من المحاضرات المسجلة بالفيديو، وأفلام علمية أصدرتها وكالة «ناسا» للفضاء، ووسائل إيضاح أخرى أنتجتها الجامعات المفتوحة فى الغرب تذاع عبر التلفزيون، وأشياء أخرى، ثم تجعل ثلاثة يختصون بفهمها جيدًا من خريجى الفيزياء وعلم الحياة، ليعقدوا دورات تدريسية فى البلد للدعاة وغيرهم بحيث يرى الحاضرون مجموعة الأفلام والصور العجيبة بواسطة البروجكتر وتليفزيون 27 بوصة مع شرح واف يقوم به هؤلاء الثلاثة، كلٌّ فى حقله، ويذكرون فى شرحهم خلاصة الكتب التى أشرنا إليها، ثم إذا أراد همام أن يستزيد بمطالعة الكتب: أعاروه إياها، أو وفروا خلاصة مطبوعة لها، وربما تدار هذه العملية كلها بواسطة ناد علمى أو مركز إعجاز أو مؤسسة تعليمية خاصة غرضها تعليم ذلك وبيع نسخ لمن يريد الشراء، وكما تكون اليوم دورات خاصة بالإبداع وبمال يدفعه المشارك: تكون دورات خاصة

بعجائب الخلق والإعجاز، من الذرة وخبر الإلكترون، إلى المجرات، ومن الأميبا والبكتريا والجراثيم إلى الحوت الأزرق، وبذلك تسود تربية إيمانية تغطى على ضعف المناهج إن كان هناك ضعف، وعلى ضعف المربين إن كان، وتعوض وتستدرك على النقص، وأنا أقترح خلال انتظارنا لقناة فضائية علمية إسلامية تخدم هذا التوجه أن ينتدب بعض الشباب أنفسهم لتأسيس موقع علمى على الإنترنت أو عدة مواقع متخصصة لتنفيذ هذه الأمنيات وعرضها بالصوت والصورة، ولقد أشرت فى مواضع أخرى من كتابى إلى ضرورة التربية القبْلية والبَعدية، وأن نُبكّر فى التأثير على فتى مبارك لّما يستقم فى الدرب الواصل إلينا بعد، وكذلك أن نلاحق منتهيًا صنعته مناهجنا، فنقدم له إسنادًا وترميمًا وتعويضًا عما تنحته الأيام، ومثل هذا العمل من الدورات أو مواقع الإنترنت أو القناة الفضائية هو الوسيلة إلى ذلك، وبمثله تكتسب منهجية التربية الدعوية معنى جديدًا، وبُعدًا طريفا، وعلى هذا النحو ينبغى أن تتوسع آفاقنا ونتطور فى فهم أساليب التربية الدعوية، ولا نبقى رجعيين لا نواكب تغيّر المعطيات واختلافات الزمان، والإمام البنا رحمه الله يوم أنشأ نظام الأسر قبل ستين سنة عام 1941 ما كان يُتاح له ما هو متاح اليوم من مخترعات ومادة علمية وإيضاحية، وواجبنا اليوم أن نحافظ على نظام الأسر المبارك الذى أنشأه، ولكن بأن نزيد عليه معطيات العصر، واللجنة التربوية التى لا يتعدى تفكيرها إنجاح اجتماع أُسرى وقيادم ليل، وتسمية كتب فكرية؛ هى لجنة بحاجة إلى إيقاظ من نوم تغط فيه، فاصحح يا نايم... وحّد الدايم، وأُقسم بالله أن التأمل فى الهندسة الطبيعية وحدها يزيد على تأثير محاضرة فى التنظيم وفقهه، مثل رؤية بلورات الثلج وتشعبها عن مركزها، وظاهرة التبلور بصورة عامة.

* الأداء الثانى: الترنم بأناشيد الحرية ومناقب الأحرار.

وفى موطن آخر كان تناول قضية الحرية من وجه آخر، فأوجبنا هناك سعيًا دعويًّا لتأكيد الحقوق والحريات دستوريًّا، إذ ما غلب العلمانيون الدعاة إلا فى أجواء الكبت والظلم، لذلك يلزم تأصيل القضية فقهيًّا وقانونيًّا، وإقامة مؤسسات حقوق الإنسان المسلم، وترويج فكر حضارى مقارن يبيّن الإنجازات الإنسانية العامة فى صيانة الحريات وتوفير بيئات النهوض ومحاضن الإبداع والتطور الشامل.

أما هنا فنتناول القضية من زاوية أخرى تربوية تعتمد إثارة العواطف والأشواق نحو طلب الحرية، والتضحية فى سبيل نيلها، وبين سِيَر الأحرار وعلو هممهم وتجردهم، فإننا إذا كسبنا معركة الحرية تربويًّا وشعوريًّا بعد كسبها دستوريًّا: نكون قد قطعنا نصف الطريق نحو إحلال المشروع الحضارى الإسلامى فى عالم الواقع.

وأنا أفهم أن اللجنة التربوية فى كل قطر هى مجرد نواة ومركز، وينبغى أن تقيم لها علاقة دائمة تنسيقية مع مائة داعية فى بلدها، تحركهم نحو إنتاج يلتقى مع أهدافها المنهجية، فبعضهم لترويج حقائق الخلق، مما ذكرناه آنفا، وبعضهم لترويج معنى الحرية، والبقية لأغراض أخرى.

وعلى رأس وسائل التغنى بالحرية: نظم شعراء الدعوة لقصائد تحرك القلوب نحوها، وكتابة المقالات البليغة المفعمة بالرمز والتشبيه والإشارة، وتدوين القصص القصيرة والطويلة التى يكون محورها عشق الحرية ومقاومة الظلم ورفض الاستبداد. ويجب أن نعترف أننا مازلنا فقراء فى ذلك، ولم نستثمر قابلية النفس الإنسانية فى إجزال البذل إذا ميّزت الحيف وأحست بثقل الأغلال ولمحت لمعة الحرية تومض من عند آخر الدرب.

وإلى حين نظم شعراء الدعوة لقصائد الحرية: أرى أن يجمع داعية بمصر أبيات الحرية التى فاه بها شعراء مصر كلهم، حتى الذى لم يتدين منهم، ثم يربط بينها، ويخرجه ديوانًا مخترعًا مؤلفًا يثير الكوامن.

ثم حُر يوازيه فى السودان يقتبس أبيات شعراء السودان فى كسر القيد، ويؤلف بينها، يعظنا بها. وعراقى وسورى وفلسطينى ويمانى وجزائرى، فتكون فى الاستخدام التربوى عشر دواوين لا تحتاج غير جهد يسير، لكن قدحها عظيم، ويتمها ديوان فارسى، وتركى، ولست آبى أن ينتدب ذوّاقة نفسه ليستخلص لنا من أدب الغرب ديوان الأحرار، وآخر يستعير من الأدب الروسى غرره، ومن أدب الهند، وأدب الصين، فتجتمع معانى الأحرار فى العالم أجمع لإسناد قضيتنا وتربية جمهورنا ودعاتنا.

وأنا أرنو إذا أنجزت كتبى فى فقه الدعوة إلى أن أضع قصيدة الحرية الكبرى من عشرة آلاف بيت موزون ومرسل، أجمعها وأتم تركيبها من الأدب العربى والعالمى كله، بأن آخذ

من كل شاعر أجمل وأرقى ما قال وأدلى به من رمز وتشبيه لحركات القلوب وشرارات العقول، وأضعها فى سياق مستمر مسترسل واحد لا تعكره تحقيقات وشروح وملاحظات بحثية، ليتمحض التأثير المعنوى ويهز الأفئدة والأرواح علّها تستجيب إذا صدع الأذان، ومن شاء أن يستعير فكرتى هذه بأن يكون أسرع منى إلى هذه القصيدة الجامعة فله ذلك، ويكون قد أتى شيئًا حسنًا، وسوف لن يمنعنى إنجازه من تجميع قصيدتى، إذ تبقى الأنفاس والأذواق مختلفة، والاستقلال ممكن مع اتحاد الهدف.

*** الأداء الثالث: توسيع المدى اللغوى، والإقتباس من الأدب.**

والفلاسفة يتداولون قصة صحيحة المغزى أعتقد صواب مفادها، فيذكرون أن حُرًّا رائدًا أتى كونفوشيوس حكيم الصين فقال له: أريد أن أعلمّ الناس الحرية، فكيف الطريق إلى ذلك؟

قال كونفوشيوس: عليك باللغة أتْقِنْها....

وهذا جواب صحيح يوجز التجارب، فإن الإنسان كتلة مشاعر وأحاسيس وعواطف وأخلاق، والمقدرة الصوفية هى التى تتعامل مع هذه الكتلة البالغة الرقة والشفافية، والخيال يبقى سائبًا ما لم تصفه التعابير، والرموز متقاربة المعانى، ولذلك تحتاج المترادفات لبيان فروقها النسبية، فمن كان ماهرًا فى التوليد واشتقاق الألفاظ وصياغة الاصطلاحات وقياس الدلالات وتحديد الاستعارات وإطلاق التشبيهات، ويجانس ويطابق ويقفو ويسجع: كان ثرى اللغة يستطيع التوصيف والتردد بين النظائر والفروق، وتجسيد الرمز المحض وتشخيص الخيال من بعد التجريد والإطلاق، وربما اخترع للحقيقة الواحدة سبعة وجوه، ويشق للمغلق خمسة مداخل يستفز المتحفّز لاختراقها، ثم يوصد الأبواب خلفه، ليأسره ويجنده فى معركة التحدى، حيث لا تشفع إلا العزمات، ولذلك فإن التوسل اللغوى ينبغى أن يكون معلمًا بارزًا فى منهجيتنا التربوية.

ثم الأدب كله وصف لمنازل النفس والروح، إذ العلم يتكلم عن المادة، وأمرنا بحاجة إلى الحماسة وديوانها الذى اختاره أبو تمام،فقد أجاد الأدباء الوصف وأوضحوا طريق التقدم الواثق.

obeikandl.com

وهل يستطيع سياسى أن يغرس قدمه من دون أن يشمخ قلبه مع الشماخ بن ضرار لما أفاق بعد أن صرعه الفقر فباع قوسه العذراء فى عكاظ؟

وفى سلسلة الأفلام الجادة كلها شظايا من الأدب تتكامل لتعزيز مواعظ الإيمان.

ففى فيلم «وادينا الأخضر» الذى تدور حوادثه فى القرن التاسع عشر خبر أهل قرية يشتغلون فى منجم فحم حجرى ويستبد بهم صاحب المنجم دهرًا، ثم تصلهم حملة مكافحة الأمية، فتتوسع آفاقهم، ويعرفون لأول مرة معنى الطموح وتحسين الأحوال، فيتعسف رب العمل معهم، وتكون ردة فعلهم هجرة جماعية إلى أميركا حيث المستقبل الواعد، وتستولى عليهم روح التحدى والإصرار على تطوير أحوالهم.

وفيلم «الأرض الطيبة» المقتبس من قصة كتبتها ابنة السفير الأميركى فى الصين وصورت فيها حياة الفلاح الصينى قبل قرن، والبراءةَ وجمالَ الحياة الأولى، فيه مشهد آسر لطيف لزوجة فلاح تمشى وراء زوجها الشاب وهما حديثا عهد بعرس وهو يأكل خوخة، فرمى نواتها، فالتقطتها دون أن يدرى، فزرعتها مقابل دارهما، حتى أثمرت بعد سنوات طويلة، فقطفت فى مشهد آخر أول ثمرة منها وقدمتها لزوجها وروت له خبر تلك النواة، فيسرّه ذلك، ويكون دليل حبّ وارتباط عميق.

فمثل هذين المعنيين الإيجابيين الفطريين فى التحدى الواعى وفى الوفاء يمكن أن يتخذهما مربّ دعوى كشظيتين يضيف لهما مائة شظية أخرى يجمعها ويرسم بها لتلامذته ملامح من حركة الحياة كيف تكون، فمثل هذه الالتفاتات الإنسانية فى المعرفة وتجارب الشعوب إنما تحركها الفطرة، ولا يمنع كفر أصحابها أن تكون ضمن منهجيتى التربوية أنا الداعية، وتكون حكمتها رديفة لمعانى الإيمان، وكم فى قصص تولستوى وهمنجواى من مشاهد واعظة، ولست أقول بأن نجعل الأدب العالمى مصدر تثقيف للدعاة فيزاحم الثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية، ولا أقول بأن الانتقاء منه هو واجب اللجنة التربوية فأبدد وقتها وجهدها، ولكن أستحسن أن ينتدب دعاة فقهاء أنفسهم فيتوكلون عن بقية الدعاة فى التقاط مشاهد من هذا الأدب العالمى تلتقى مع التوجه الإسلامى، فيروى الواحد منهم مائة مشهد مقتبس باختصار من قصة مكتوبة أو فيلم ممثل، وبذلك تضاف هذه المعانى وتصويرات خلجات

النفوس إلى رصيدى الإسلامى من المواعظ والرقائق التربوية مع توفير عصمة عبر الانتقاء الحذر من أن تسرى إلى دارى عدوى فهم جاهلى غلط.

ونظرة سريعة إلى قصة «الدرس الأخير» القصيرة البارعة تشهد لرأيي بالصواب، وهى تصوّر تلميذًا فرنسيًّا فى مقاطعة الألزاس واللورين ظل متمردًا على أستاذ اللغة الفرنسية ولا يعتنى بقواعد لغته ونحوها، حتى احتل الألمان إقليمه فى حرب السبعين فى القرن التاسع عشر، وقرروا تدريس اللغة الألمانية بدل الفرنسية، فيجمع المدرس تلامذته ليلقى عليهم الدرس الفرنسى الأخير فى اسم الفاعل والمفعول، وعندئذ يستولى الندم على الطالب المتمرد المقصّر فى تعلم لغته، ولكن لات حين مندم، فإن المحتل لا يراعى شعور نادم مفرّط، بل يفرض لغته. وهى قصة تنفض أى طالب –من أى أمة كان– نفضًا، تدعوه أن يتقن لغته ويعتز بها، ولا يكون العربى أقل تأثرًا بها وبمغزاها من الفرنسى.

ولى بحمد الله وعى وانحياز لإسلامى يجعلنى أتخذ من الأدب الإسلامى محورًا أساسيًّا فى المنهجية التربوية الدعوية، وإنما أردت تعليم الدعاة إمكان التكميل والتحسين والتزيين بمقتبسات واعية من الآداب العالمية لا أجدها تنافى إيمانى وموازينى.

ودليلى فى ذلك فعل النبى ﷺ وقوله.

قال ابن حجر:

«روى الفاكهى وابن منده من حديث ابن عباس أن الفارعة بنت أبى الصلت أخت أمية أتت النبى ﷺ فأنشدَتْه من شعره، فقال: آمن شعره وكفر قلبه».

وروى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «ردفتُ النبى ﷺ فقال: هل معك من شعر أمية؟ قلتُ: نعم. فأنشدته مائة بيت، فقال: لقد كاد أن يُسلم فى شعره» (1).

وهذا هو مستندى فى إيراد أبيات لشعراء فساق لهم شعر ماجن ربما، لكن لهم قول حسن بجانبه قالوه ربما فى لحظات الأوبة إلى الفطرة أو الاقتراب من التوبة.

وهو الذى يشجعنى أيضًا على الإبعاد، وطلب ما ينفع فى التربية من الأدب العالمى، فإن من الأدباء من كفرت قلوبهم وآمنت بعض خواطرهم ومشاهد قصصهم.

(1) فتح البارى 8/ 153.

والذى ذكرناه من عموم الخيال والرمز الذى ينغمس فيه الأديب، مسلمًا كان أو كافرًا، لا ينافى العقيدة ولا موازين الشرع، والجفلة التى تصيبنا من ذلك هى بسبب يبوسة مازالت تستولى علينا، وأما السلف فلم يكونوا مثلنا، بل كانوا أكثر واقعية وأوسع أفقًا وأرحب صدرا، ولا آتى لك بقول متساهل يمكن أن ترده، بل بقول شيخ المتصلبين الإمام ابن تيمية، فإنه رحمه الله يقول:

«والتأليف والتنفير يحصل بالتوهمات، كما يحصل بالحقائق، ولهذا يُؤثر قول الشعر فى التأليف والتنفير بحيث يحرك النفوس شهوة ونفرة تحريكًا عظيمًا، وإن لم يكن الكلام منطبقًا على الحق، لكن لأجل تخييل أو تمثيل».

وكذلك: «منزلة الحكايات التى فيها الأمثال المضروبة، فإن الأمثال المنظومة والمنثورة إذا كانت حقًّا مطابقًا فهى من الشعر الذى هو حكمة، وإن كان فيها تشبيهات شديدة وتخييلات عظيمة أفادت تأليفًا وتنفيرًا» (1).

*** الأداء الرابع: استقراء التاريخ وأحداث الزمان .**

إذ تلزمنا قراءة إسلامية للتاريخ، ثم قراءة دعوية أخص، وأكبر مواعظ التاريخ تكمن فيما تعارف عليه الناس من القول بأن التاريخ يعيد نفسه، وهو مختبر الحياة والأفكار والأخلاق، وفيه القرائن الكاشفة عن المخبوء من الطبائع النفسية. وأبدع المؤرخ المسلم حين وصف كتابه بأنه «تجارب الأمم».

وأول ذلك: الإنصات لرواية القرآن لتاريخ الرسالات وتصرفات الأقوام مع أنبيائهم، وكلنا يدّعى أنه قد علم ذلك، ولكن لما أتيح لى فى الخلوة أن أختم القرآن مرارًا بدا علمى بتاريخ الإيمان آنذاك، وأدركت ارتباط حاضرى هذا اليوم بإبراهيم عليه السلام صعودًا إلى نوح، وسر تحول النبوة والملك من بنى إسحاق إلى بنى إسماعيل فى شخص نبينا محمد ، ثم استمرار الملك فى أمته إلى قيام الساعة بإذن الله، وهذا هو مفاد الاستشراف الإيمانى العقيدى لمستقبلنا مهما تطاولت إسرائيل، فإنها لن تعدو قدرها ولا قَدَرها المكتوب لها، وكل داعية بحاجة إلى تجديد فهمه لهذه الرواية القرآنية للتاريخ، ويمكن أن يكون كتاب السنن الكونية للأستاذ عبد

(1) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام 28/ 650.

الكريم زيدان معينًا له فى التفهيم، وكذا بعض تعقيبات سيّد فى الظلال على قصص الأنبياء.

وأما التاريخ الإسلامى فنحن نفتقد حتى الآن مدونة شاملة تتحرى الخبر الصحيح والتحليل الصائب، وحاول الأستاذ أنور الجندى التعقيب على المفاصل المهمة فقارب، ثم حصلت مشاركات متناثرة للكشف عن نقاط مضيئة أدلى بها محمد الصادق عرجون وأبو الحسن الندوى ومسعود الندوى وعماد الدين خليل، ويحاول اليوم الدكتور عبد الرحمن الحجى عبر مركز كيمبردج للدراسات التاريخية الذى أنشأه حديثًا أن يستقطب جهود الغيورين الذين عزموا على إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بعد أن شوهته كتابات تلامذة المستشرقين، وقدم كل من نعمان السامرائى وأكرم العمرى وعبد المجيد النجار ملاحظات حضارية قيمة، والعملية بمجملها صعبة، وستستغرق وقتا، لكثرة الخلط والتشويش البدعى.

وأما القراءة الدعوية للتاريخ الإسلامى فإنى شرعت بتدوين محاضراتى القديمة فى ذلك، وستصدر «موسوعة معالم التطور الدعوى» فى خمسة أجزاء ضخمة قبل نهاية عام 2002 إن شاء الله، وضمنتها صراع السنة والبدعة، وخبر الجهاد ولمعات البوارق، والتطور العلمى، والنضوج الدعوى، والمواقف القيادية، وإضافات النبلاء، ومشاركات أقطار العالم الإسلامى، ومراحل الدعوة المعاصرة، مع استشراف للمستقبل، وسيشعر الداعية إذا أتم قراءته أنه قد وُلد من جديد، وأنه اكتسب هوية أصيلة، وورث إرثًا من المفاخر ضخمًا، وأن ما كان يجهله من مناقب أسلافه أكثر مما كان يعلمه، بل يجهل حتى الكثير من صور العطاء المعاصر.

وأما التاريخ السياسى الحديث ففيه من الفوائد للدعاة الشىء الكثير، وكذا المقارنة بين الحضارات، ويبقى أمر الاستيفاء فوق طاقة اللجان التربوية ولا تستوعب المناهج غير ذكر أسماء كتب للمطالعة، ولذلك أقترح أن يكون فى كل بلد ثلاثة أو خمسة من المائة الذين تستعين بهم اللجنة التربوية، يتخصصون فى دراسة التاريخ بعمق، ويتولون إلقاء المحاضرات التاريخية فى الدورات التطورية على النمط المنهجى المتطور الذى يستعين بالخوارط والصور والأفلام التسجيلية، ويتقاسمون العمل، فواحد يختص بالتاريخ الإسلامى القديم، وآخر يختص بالتاريخ الإسلامى الحديث، وثالث للتاريخ العثمانى، ورابع للتاريخ السياسى العام،

وخامس للشخصيات العالمية والقيادات واستعراض سيرهم وأدوارهم، المسلم منهم والكافر، وهذا النمط من إسناد هذه الواجبات الكفائية فى تدريس التاريخ أو الاقتباس من الأدب العالمى إلى مختصين هو من الجانب المنهجى فى التربية الدعوية.

*** الأداء الخامس: تنمية الإحساس الفنى الجمالى .**

فتجربتى تفيد بوجوب تعليم الدعاة القيم الفنية التى هم عُراة منها فى الأغلب، ولابد أن نخطو خطوة منهجية تنقذهم من ازدواج الشخصية اللاشعورى المستقبَح، ليتوفر لهم تكامل فى الشخصية موزون مقدَّر مخطط.

فالحياة الحاضرة تفرض على الداعية النظر ثم التعامل مع معطيات فنية كثيرة جدًّا، عبر مطالعة الصحف، والنظر إلى التليفزيون، واستعمال الكمبيوتر، وخلال الدراسة الجامعية، والتجول فى المدينة، ودخول الأسواق، وهو يتأثر أثناء كل ذلك بدرجات من التأثير، وفنّانو الجاهلية يصبّون فيه أحاسيسهم وحزمة من المفاهيم والنظرات والتأولات كل يوم، وهو مستسلم كل الاستسلام لمحاولاتهم، ثم لما آتيه أنا أدعوه إلى استقلال، وإلى فن إيمانى، وتجريب ذاتى، وترجمة الشعور الملائكى النقى الصافى، ووصف السمو العالى والجوهر الغالى عبر خط ولون ورمز وإشارة وخشبة وحديدة وطين وخزف وقطعة قماش؛ يأبى ذلك، وينكر ويزجر، ويعتصم برجعية ابتدعها ما كتبها الله عليه.

بل الفن تعبير عن حاجة فطرية، وأصله المحرِّك: هيام بالجمال.

وتكون البداية بغرس الإحساس الفنى الإسلامى، عبر وسائله المشروعة التى لا شبهة فيها وتلقتها الأمة بالقبول، وعلى رأسها: الخط العربى البديع، والزخرفة الهندسية والنباتية، والعناية بذلك تؤسس حاجزًا نفسيًّا يحول دون تذوق ما هو غير إسلامى، وهو حاجز ضرورى للحفاظ على شخصيتنا الإسلامية المميزة، حتى ولو كان ما هو غير إسلامى ليس محرمًا، ولكن صار عنوانًا لفن قوم آخرين، مثل الأشكال القوطية والرموز الصينية.

لكن ذلك لا يمنع أن أقتبس من الفن العالمى والتشكيلات ما بقى عائمًا عامًّا لم يلتصق بقوم كعلامة لهم، مثل المدارس الفنية التجريدية والتكعيبية، وأشكال النحت الانسيابى المعاصر الذى لا يدقق فى صورة الجسم وإنما يكتفى بالإيماء إلى الشكل والمعنى دون تفصيل،

فهذه اللمسات الفنية التى أتت بها أحدث المدارس الغربية تلتقى فى كثير من جوانبها مع المعيار الفنى الإسلامى، أو على الأقل لا تعارضه ولا تصادمه، ويمكن للفنان المسلم أن يستعير أساليب الإيماء تلك ويوظفها للتعبير عن المثاليات الأخلاقية والإيمانية، ومعانى النقاء والعفاف والعزة والشموخ وحقائق الفطرة الحيوية، وهناك كمٌّ هائل فى اللوحات الغربية من الاستعمال الناجح للألوان وتجانسها وتنافرها وتجاور النقائض أو التدرجات اللونية، ومعطيات الخطوط المستقيمة والمنحنية، والفراغات، والدوائر والمربعات، وكل ذلك يخدم الفنان المسلم ويوسع مداركه الفنية، فيبدأ بتقليد والاقتباس، وينتهى باجتهاد وإبداع ومذاهب مستقلة.

لكنى مازلت عند رؤيتى القديمة فى أن المجال الفنى الإسلامى الرحب إنما يكمن فى «الموازين المعمارية» وأشكال العمارة، وأن التعاطى والتعامل المرن مع الفنون المعمارية يمنح الداعية فهمًا لفقه الدعوة وحركة الحياة، وأنا أجزم بأنه بين المشاهد المعمارية فى التوازن والتدرج والتداخل والاستقلال والبروز والخفاء يكمن علم كثير وخير وفير وحكمة، ولابد لنا من دراسة المدن الجميلة قديمها وحديثها فى العالم كله، والأبنية المشهورة، والنوافير والأشكال الرمزية التى تملأ زوايا الشوارع وباحات العمائر العالية فى العالم أجمع، مع اللوحات الجدارية الواسعة، وأنا أجزم بأنى أستطيع استعارة ومحاكاة خمسة آلاف لوحة وشكل ومفارقة هندسية موضوعة فى زوايا شوارع أوربا وأميركا واليابان وبلاد أخرى أو عند مداخل البنايات المشهورة ولا يعارض الواحد منها أحكام الشريعة فى الحلال والحرام، ويمكننى أن أجمّل بها مدينتى الإسلامية، ويلزمنى التحوير فيها من أجل استقلال المذهب الفنى الإسلامى لا من أجل أنها توحى بمعنى مشبوه.

وأنا أذهب إلى أبعد من مجرد استخدام الأشكال والصور والتصاميم فى توسيع الخيال، مما أوصى به مدربو الإبداع، فأقول بتعليم جميع ما نجح فيه الفنانون فى العالم أجمع من تكوينات وأشكال وتداخل ألوان وتقاطع خطوط وأبعاد هندسية وتدرجات وتناقضات وتوازٍ وافتراق والتواء، بجمعه وعرضه على الدعاة فى حزمة واحدة أو حزم متعاقبة، للوصول بخيالهم وتصوراتهم إلى المدى البعيد الذى بلغته الإنسانية بمجموعها وليس مجرد أنفار منها. وأنا مؤمن بأن هذا هو الطريق الأهم لمنح الدعاة الخيال الخصب المرن، ليس المعين على

اكتشاف البدائل فقط والتمكين من الإبداع، بل ليكون أيضًا مصدرًا من مصادر الاتزان النفسى المعنوى الذوقى بعد حقائق الإيمان. وحين أقول بإيراد ما نجح الفنانون فيه فى العالم أجمع فينبغى أن يفسر ذلك بالحسنى، وإنما أعنى: إسقاط الحواجز فى هذا الباب، والتلقى عن عدد كبير منهم، انتظمتهم أجيال عديدة، ولست أعنى الاستقصاء الذى لا يترك صغيرة، فإن ذلك طلب تعجيزى، إنما هو الإكثار والشمول.

وأنا حزين، وأرثى حال الدعوة فى كل الأقطار، أنها لم ترزق بعدد من الفنانين يكملون بتربيتهم التخطيطية واللونية تربية ناقلى الروايات الشرعية والمعانى الإيمانية للدعاة بتناسق ألوانهم وحشد تشكيلاتهم، وهى ثغرة كبيرة تكشف عن جانب سلبى فى منهجية التربية الدعوية الحاضرة ليس لها تأويل سوى أنها نتاج محدودية القاعدة المعرفية العامة عند واضعيها، وكان سيد قطب رحمه الله قد انتبه لهذا المعنى، وبدأ عرض لمسات فنية فى جريدة «الدعوة» الأسبوعية لما تولى رئاسة تحريرها أول الخمسينات، ثم أوقفتها المحنة، وأظن أن ذلك إنما كان لسعة الخلفية الثقافية التى تكونت عند سيد قبل انضمامه للجماعة، وكنت شابًّا صغيرًا آنذاك أتعاطى الفن وأقترب من أهله وأحضر معارضهم ببغداد: جواد سليم، وحافظ الدروبى، وفاضل عباس، وفرج عبو، وأضرابهم، وكنت ربما خرجت من اجتماع الأسرة الدعوى لزيارة معرض لهم، وما كنت أرى فى ذلك تناقضًا، ولذلك سرّنى آنذاك توجه سيد رحمه الله ، إلا أن انقطاعه بالمحنة تركنى رغم تساهل عنده آسفا آسفًا إيجابيًّا، به أترصد فرصة لخدمة الإبداع الدعوى عن طريق جمع واستعراض الإجادة الفنية التشكيلية العالمية بخاصة واختيار أحسنها وتجميل ذوق الدعاة برؤيتها وتحسس جمالياتها، ثم طوى عنف الأحداث السياسية والثورية أحلامى، ومنعتها «رجعية» بعض المتصدين للتربية ممن لا يعلمون خبر الفن ودوره الحيوى المتعدد الوجوه، ثم زادت آلام الغربة كبت أشواقى الفنية وتحجيم حماستى لإدخال الفن كمصدر فى التربية الدعوية الإبداعية، إلا أن البذرة لبثت حية فى قلبى، وعلامتها: نمط عرفنى به إخوانى فى تجويد اختيار أغلفة كتبى، والتفاتات فنية أضمنها دروسى، ثم أعدت اكتشاف نفسى الآن بعد الستين، وتصاعدت عندى الحماسة الفنية ثانية، وأنا أعلم جيدًا أن الكثير من إنتاج الفنانين العالميين فى تصوير ذى الروح يدخل فى باب الحرام أو المكروه، وأن الاحتياط يوجب ترك ذلك، إذ إنى سلفى قبل أن أكون متذوقًا للفن،

لكنى نويت استقصاء ما وراء ذلك من إبداع الفنانين مما يدخل فى دائرة الحلال أو فى كراهة مختلف فيها بين الفقهاء تتيح مجالاً لمقاربتها، من تجريد ورمزيات، وأجزاء من الصور تُضرب مثالاً للجمال أو توحى بمعنى، أو نجاح فى الهندسة اللونية أو التخطيطية، أو الزخرفة، أو تداخلات الحرف العربى وإثراء التشكيل به، ثم إذا اجتمع ذلك عندى أودعته فى ثلاثة مجلدات ضخام تكشف اللمسات الناجحة والأشكال والتشكيل اللونى، مع تعقيب على ذلك وكلام نقدى، وأقدم ذلك لمجموع الدعاة هدية تكمل سلسلة إحياء فقه الدعوة إذا انتهيت من تدوينها وتكون أداة وافية بإذن الله لتعمير الجانب الفنى والذوقى فى الدعاة، وتجعلهم أقرب إلى الإبداع، وبها يكتمل الوصف المنهجى للتربية الدعوية.

سيكون العمل شاقًا، ويكلفنى مالاً كثيرًا جدًّا ووقتًا، ويضطرنى إلى شراء ألف كتاب للفنانين العرب والمسلمين والغربيين والشرقيين لجردها واقتباس أمثلة منها أو زوايا ونقاط معينة من الصور، ويدعنى أزور أيضًا مائة متحف فنى عالمى، وأن التقط ألوف الصور بكامرتى، لحشر أكبر مقدار من الإبداع الفنى الذى توصل له البشر، وأهبه إلى الدعاة يتربون على إيحاءاته.

وإذا علمت أن داعية من دعاة الإسلام له مثل هذا الاستعداد أيضًا وحباه الله بحاسة فنية عالية فإنى سأتعاون معه وأنفق عليه ربما من أجل أن يتحفنا بثلاثة مجلدات أخرى تكشف الإبداع من زاوية مختلفة وتكون رصيدًا تستقى منه منهجية التربية الدعوية الفنية.

وأنا متحمس بنفس الدرجة إلى أن أجمع بإذن الله ثلاثة مجلدات أخرى مصورة تكشف الإبداع المعمارى فى العالم، لتكون موردًا من موارد التربية الدعوية فى منهجيتها الجديدة المنمية للإبداع والغارسة لموازين الجمال.

وكنتُ قد أنجزت كتابة فصل مبتكر حوى المعانى التنظيمية والدعوية التى يمكن اقتباسها من الإيحاء المعنوى لمذهب المعمارى العراقى رفع الجادرجى الذى أودعه كتابه النقدى الإبداعى المُسمى «بين الأخيضر والقصر البلورى»، ونويت أن أضع الكلام هنا ضمن الأداء الفنى، لكن هجرتى وتوزع أوراقى أضاعت تلك الكتابة، ولعن الله الظلم والاستفزاز الأمنى السياسى، كم يعاكس ويبدد الأداء الحضارى وثمرات الفكر، وإذا عثرت إن شاء الله على تلك الأوراق الضائعة فسأنشرها مستقلة ربما، وتضعها أنت هنا كملحق.

حقائق الميادين وإلهامات المتاحف ومواعظ السياح

والوسيلة لتحقيق هذه الأنواع من الأداء خاصة وعامة.

* **أما الخاصة:** فتكون فى الخروج من التربية التقليدية التلقينية إلى منهجية الفحص الميدانى، وزيارة المتاحف والآثار ومواقع المعارك والأحداث الكبرى الشهيرة، واطّراح النظرة السوداوية المتشائمة والسلوك الانعزالى، والقيام بسياحة واعية ثقافية، وليكن الدعاة مثلى: أول ما أصل إلى مدينة أركض إلى متاحف الآثار، ومتحف التاريخ الطبيعى، والمتحف العلمى، والمتحف الحربى، وأذرع شوارعها وأسواقها ماشيا، حتى المقابر أزورها، أقرأ تاريخ المشاهير من شواهد القبور، وهذه إسطنبول وقفت طويلاً عند كل أبنيتها التاريخية وأسوارها، وتجولت فى أوربا خمس مرات بالسيارة، ولذلك أنا أعرفها شبرًا شبرًا، وحين كنت فى إيطاليا ذهبت إلى جنوبها لأرى مدينة بومبى التى دمرها بركان فيزوف قبل ألفى سنة وترك فيها شيئًا عَجَبا، ولما حججت أول مرة ذهبت إلى سوق عكاظ، واقتبست بعض المعانى عند سور الصين العظيم، واستلهمت عاطفة فى موضع مقتل طليعة المستعمرين ماجلان فى جزيرة ماكتان فى الفلبين على يد البطل السلطان المسلم لابو لابو ليست أقل من الوعى الذى غمرنى فى موضع مقتل الجنرال غوردون على ضفاف النيل الأزرق، وتكاملت أحاسيسى حين وقفت فى مختبر نيوتن فى كيمبردج مع أحاسيس أحتفظ بها منذ زمن التلمذة حين زار بنا أستاذنا مدرسة علم المثلثات البابلية فى تل محمد ببغداد حيث وجد الآثاريون فيها أكثر من ثلاثين ألف لوح بالخط المسمارى فى الرياضيات.

ووعى السلف لأهمية السياحة الهادفة كان أكثر من وعينا، ولذلك جعلوها فى المنهجية التربوية، وما كانوا أهل مفاهيم رجعية مثلنا نقتصر على التلقين، ولذلك فهم الرازى صفة «السياحة» التى مدح الله بها المؤمنين فى القرآن على ظاهرها، أى فى قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة].

فذكر أن أحد تفسيرات السياحة المقصودة «**أن المراد من السائحين:** طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى بلد فى طلب العلم، وهو قول عكرمة».

ثم قال الرازى: «وأقول: للسياحة أثر عظيم فى تكميل النفس، لأنه يلقاه أنواع من الضر والبؤس، فلابد له من الصبر عليها، وقد ينقطع زاده، فيحتاج إلى التوكل على الله، وقد يلقى أفاضل مختلفين، فيستفيد من كل أحد فائدة مخصوصة، وقد يلقى الأكابر من الناس، فيستحقر نفسه فى مقابلتهم، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة فينتفع بها، وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى فى كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته، وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية فى الدين»(1).

ولماذا لا نطور فى أساليب الموعظة فنحدث المسلمين عن أعاجيب البلاد وطبائع الأمم مع تحديثنا لهم بالآى والفقه؟

إن الأداء الدعوى يليق له أن يخرّج فى كل بلد بعض دعاة من أهل الثقافة الشمولية والسياحة والأدب واللغات إلى جانب الثقافة الشرعية، يتولون أسر الناس بجميل حديثهم التجريبى المتنوع، ثم يكون حديث العزائم بين ذلك.

لنكن مثل هداية الله بن عبد الله الحنبلى الفارسى السورتى رحمه الله المولود سنة 1850م والمتوفى بحيدر آباد عام 1335 هـ أول الحرب العالمية الأولى ، وكان من العلماء الذين أبعدوا فى السياحة فى ذلك الزمن الصعب.

ذكر معاصره العلامة عبد الحى الحسنى والد أبى الحسن الندوى أن هداية الله –رحمهم الله جميعًا– كان «أحد العلماء المبرزين فى المعارف» «وسافر للعلم فقرأ النحو والصرف» والكتب الطبية، والصحاح الستة على يد عدد من العلماء، وعلوم القرآن وغيرها وأجازه كثيرون، منهم محدث الهند وعالمها الأكبر نذير حسين، والعلامة حسين بن محسن اليمانى نزيل الهند «وسافر إلى الحجاز فحجّ وزار، وسافر إلى بلاد مصر والشام والقدس، وإلى بلاد أوربا، وإلى بلاد التتر، وإلى بلاد أمريكا، وساح معظم المعمورة، ورأى العجائب من كل بلد وإقليم، وكان باهر الذكاء قوى التصور، كثير البحث عن الحقائق، لطيف الطبع، حسن المحاضرة، فصيح المنطق، مليح الكلام، وكانت مجالسه نزهة الأذهان والعقول، بما لديه من الأخبار التى تشنف الأسماع، والأشعار المهذبة للطباع، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلها وعجائبها،

(1) تفسيره 16/ 162.

وكان يعرف اللغات المتنوعة، ويتكلم بالعربى والفارسى والإنكليزى والتامل والتلنكو والبنكله والكجراتى وغيرها من غير تصنّع وتجشم، كأهل اللسان» [1].

أفلا يكون بعض الدعاة اليوم على مثل ذلك، لتكون مواعظهم نزهة أذهان جيل بردت عواطفهم وأصابهم ملل من نمط وعظى مكرر جامد الألفاظ ليس فيه تفنن وتجديد؟

وأما الوسيلة العامة: فقناة فضائية ثقافية علمية إسلامية لا تقرب السياسة والإثارة، بل تتجرد للمعرفيات والعلم والفن، وسيأتى فى فصل لاحق سبب أقوى لاقتراحها، فإنا ننتظر منها أن تشيع التوحيد فى الأمم وتقوّى إيمان أبناء المسلمين بتربية تعتمد إبراز حقيقة التوحيد التى انتهى إليها مراقبو الفوتون والإلكترون عبر فيزياء الكم، وهذه القناة تستلزم صرف مال كثير ووجود كفايات إدارية وعلمية عالية، وهو أمر صعب على القطر الواحد، يسير بإذن الله عند التعاون العالمى، وليس هذا موطن تفاصيل تنفيذها، وإنما نقصد إثارة الانتباه إلى ضرورة تضمينها منهجية التربية الدعوية الجديدة ورصد أجود مثقفينا لخدمتها وإنجاحها، إذ هاهنا التربية العريضة العميقة، وفيها التعويض عن كل ضعف، وستحدث انقلابًا جذريًّا لصالحنا فى صراع الإسلام مع جاهلية القرن الحادى والعشرين.

* * *

(1) نزهة الخواطر 8/ 521.

obeikandl.com